كتاب الشهر 17 سلسلة شراع

أوهام المثقفين

محمد الدغومي

من أجل مجتمع مغربي قارئ

10 دراهم



سلسلة شراع

كتاب شهري يصدر عن وكالة شراع
لخدمات الإعلام والاتصال

رئيس التحرير : خالد مشبال
المستشار الفني : أحمد بن يسف

مركز الإدارة
27 شارع ولي العهد ـ طنجة
الهاتف : 94.42.12
37.39.27
الفاكس : 94.42.16

العدد السابع عشر : صفر 1418 ـ يوليوز 1997

« شراع »

سلسلة شهرية لنشر ثقافة الإعلام

الثمن : 10 دراهم

«من أجل مجتمع مغربي قارئ»

« كيف يبدو ظاهر الثقافة عندنا عبر مؤسسات التربية والبحث العلمي . ؟ » .

ثقافة الواجهة ..

يصعب كثيرا على الفعل السياسي المُقَوَّم بالبرامج والتصورات ، أن يجد صداه في أرضية يُصَلِّبُها الخوف من الكلمة التي " لاجدوى منها سوى الرغبة في تغيير أصحابها " . فالخوف من الكلمة والفزع من إعلان الرأي ، تعبيرات أساسية عن الخوف من الفعل الثقافي ، الذي بدونه يسهل تجريد السياسة عن نبلها الأخلاقي ، لتصبح مجالا قذراً لممارسة لعبة المصالح النفعية الضيقة على

قاعدة : « الغاية تبرر الوسيلة » ..

ـ والخوف من تثقيف المجتمع هو نفسه الخوف من دمقرطته وتحديثه ..

إن صلابة مطمح " التغيير " وجموح الرغبة في فك " الحداثة " من عقال معوقاتها ، يفترضان توجيه الفعل الإجتماعي المنظم نحو تغيير الذهنيات والعقليات السائدة والمسلكيات المرتبطة بها . وتلك من أهم المهمات المنوطة بالقوى السياسية الوطنية الديمقراطية ، كما هو شأن المؤسسات الثقافية الجادة ، ضداً على التسييد المكثف لروح الفساد والإفساد في مجتمع يستبد به الفقر والجهل ، وكل الأمراض الإجتماعية المزمنة . فكل ممارسة إجتماعية منظمة ترفض التأطير وفق ما يجعلها إستجابة موضوعية لآفات وعاهات الفضاء المجتمعي الذي تتحرك فيه ، تظل ممارسة متعالية وقاصرة عن خلخلة (بنيان التخلف الشامخ) ..! والحديث عن الفعل الثقافي ـ أو الثقافة في بعدها السياسي ـ لا يستهدف الثقافة كمفهوم نظري عام ، بل يقصد الثقافة كنشاط وكمؤسسات تتحدد حركيتها من خلال الإرتباط بأبنية مجتمعية ؛ أي أن الذي يصبح موضع النظر ، هو البعد الوظيفي للثقافة في إمتداد تأثيرها ونفوذها إلى

الواقع ، ذلك أنه إذا كانت السياسة أداة لتحويل المشكلات النظرية إلى معضلات عملية تتطلب البث على المستوى العملي ، فإن الفعل الثقافي - بهذا الفهم - يصبح فعلا سياسيا ، إذ يغدو السؤال الثقافي سؤالا سياسيا ، لا يستكين لإجابات مجردة ، بقدر ما يتطلب إجرائية البث الفعلي ، وإلا فكيف يكتسي فعل الكتابة دلالته السياسية ؟ ومن أين للكلمة والرأي بالفصاحة والحصافة التي تستدعي العنف والإغتيال ؟!

* * *

- غالبا ما تكون المظاهر خداعة .. !

لأن معاشرة الفقر التي تورث فقراً أذقع من نظيره المادي ، ولأن الإستئناس بالجهل الذي يفرز أمية أخطر من تلك التي تتعلق بمعرفة القراءة والكتابة .. لا يسعفهما إلا الإنغلاق بالمرء في (عقيدة المظاهر المعلنة) ، مع تسييد الخوف من كل شاردة أو واردة من شأنها خلخلة المظهر العام الذي يراد تسييده .

- ومهما يكن من خداع المظاهر ، فإن الأمر لدينا واضح وجازم بألا " نحكم إلا بالظاهر ، والحقيقة تتولى الباطن " !

كيف يبدو ظاهر الثقافة عندنا ، عبر مؤسسات التربية والبحث العلمي ؟

- ظاهر براق ومغر دون شك .. يساير القول المأثور : « جعجعة ولا طحين » !!

فبعدما فاق عدد الطلبة المسجلين في 13 جامعة ، بالإضافة إلى عشرات معاهد التكوين العليا ، 250.000 طالباً - بنسبة زيادة سنوية تقدر بـ 8٪ - و 16.000 باحثاً في السلك الثالث من مختلف التخصصات ؛ وقبل أن تفتح " جامعة الأخوين " أبوابها في يناير 95 لـ 2.300 طالباً موزعين على ثلاث كليات ، كان قطاع التعليم والبحث العلمي قد بدأ منذ 1983 ، يصرخ معلنا أزمة لا سابق لها في « المطابقة والملاءمة » ، حين كان التضخم الذي يخص عطالة الشهادات في حدود 2.495 سنة 1983 ، ليتجاوز حاليا 100.374 (حسب دراسة أعدها المجلس الوطني للشباب والمستقبل في السنة قبل الماضية) .

وأمام هذه " الجعجعة " ، توالت أعداد الباحثين الذين يهاجرون خارج وطنهم ، ليصل عدد الأطر المغربية العليا المحصية في فرنسا عام 1990 إلى 5.272 إطاراً . الأمر الذي أثار (إهتماما حكوميا) مفاجئا بالجالية العلمية

المغربية المقيمة بالخارج ، أملا في العثور على سبل فعالة وغير مكلفة في نقل لتكنولوجيا والتقدم العلمي . وقد تُرجم هذا (الإهتمام الحكومي) في " مؤتمر العلماء المغاربة بالخارج " ، الذي نظمته سنة 93 و 1994 كل من : وزارة الشؤون الخارجية والتعاون ، وزارة لتربية الوطنية ، والوزارة المكلفة بشؤون الجالية المغربية بالخارج ، بتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية (PNUD) .

- وبنفس المنطق الذي يعتمد " الظاهر في الحكم " ، نشرع السؤال على مصراعيه : « إلى متى سيخدعنا الظاهر .. والجلي منه غير طاهر ؟! » . ●

« وكالة شراع »

أوهام المثقفين

بقلم :

محمد الدغومي

لوحة الغلاف :

محمد الغناج

كتاب الشهر 17 سلسلة شراع

« من العبث أن نتحدث عن فئة إسمها « المثقفون » ... »

أين المثقفون ؟

سألت نفسي وأجبت : « لا وجود للمثقفين » ورأيت أن مثل هذا الجواب لا بد أن يكون مقلقا ومثيرا لحنق بعض الناس ممن يتصورون أنفسهم « مثقفين » ، وخاصة الفئة التي لا أجد لها من صفة سوى صفة « المخلوضين » .. هؤلاء سيرون الجواب عداء صريحا لهم ، ونكرانا لحقائق موجودة بالأسماء والأفعال ... ومثل هؤلاء لا يجدر بي ولا بغيري أن يجادلهم أو أن يتفق معهم ؛ فالمسألة التي يؤكدها الجواب المذكور تتجاوز قامتهم

ووظيفتهم وفهمهم .. لأن أصل الجواب وسياقه موجودان حيث لا يكون لهم وجود .

ذلك لأن مفهوم « المثقف » أصبح مفهوماً فارغاً لايدل على شيء محدد ، وأن « الدور » الذي كان يسند إلى فئة إجتماعية ، موصوفة بصفة « المثقفين » لم يعد وارداً ولا مقبولا .. فلم يعد في الواقع ما يبرر مثل ذلك الدور العام الذي يوكل إلى فئة ما ، لمجرد أنها تعلم شيئا ما أو تحمل شهادة ، أو تجيد القراءة والكتابة ، أو تحترف مهنة لها صلة بالعلم والمعرفة ..

لقد كان هذا « الدور » مرتبطاً بمركز إجتماعي واضح ، بحيث يسند إلى جماعة دوراً رمزياً ما ومضموناً ما مثل : « الإصلاح » ، الوطنية ... والثورية ... وما إلى ذلك من مضامين كانت في كل مرحلة لها معان نوعية .

أما الآن ، فإن الأمر لم يعد مقبولا أو مفهوما على الأقل ، بعد أن اتسعت قاعدة المتعلمين وتنوعت الإختصاصات ، وتوزعت الإختيارات ، ولم يعد أمام الفئات ذات المؤهلات المعرفية والفنية صفة توحدهم ، إلى درجة أنهم يُنسبون إلى مراكز متناقضة ومتعارضة في اليمين واليسار .

ومن ثم ، صار من العبث أن نتحدث عن فئة إسمها « المثقفون » ، مادام دور ما يسمى « المثقف » غير واضح ، بل صار أدواراً نوعية ومتفرقة لها أصحابها ، بحيث سيكون مضحكا أن نضع في خانة واحدة عالما باحثا جامعيا ، ومحاميا وسياسيا وكاتبا أديبا وناشراً وفقيها دينيا ، وموظفاً إداريا في إدارة « ثقافية » أو جمعية . (وما أكثر المتطفلين على الجمعيات ممن ليس لهم صفة أصلا) . كل هؤلاء يمثلون نماذج من نخبة إجتماعية واسعة .. لم يعد في إمكانها إحتكار « دور » ما يحدد وظيفتها وهويتها ، ويكون في الوقت عينه دوراً واحداً وعاماً .

لذا حين يأتي الجواب نافيا وجود « المثقفين » ، فإنه لا يعني أكثر من أننا مطالبون بتحديد الأدوار والوظائف ، وأن يختص كل بدوره في عالم تغيرت فيه الذهنيات والوسائل والمهام والمؤسسات ، ولم يعد مقبولا أن تلتبس الأدوار دفعة واحدة إحتكاما إلى مصطلح متجاوز إسمه « المثقف » أو « الثقافة » ، بعد أن صارت « الثقافة » نفسها غير محددة ومختلطة ، ويتعذر أن تكون خاصية معرفة وواصفة ، وعلى كل صاحب إختصاص أن يحدد دوره

تماما أولا ...

أما « المخلوضون » الذين تجدهم في كل مكان ، لا يبحثون عن شيء سوى الشهرة وتلميع الذات ، ولا يملكون ما يخصصهم في العلم ولا في الفن ، ولا في الصحافة ، ولا في التربية والسياسة والقانون والإدارة ، ويلعبون في الهامش ، لا دور لهم غير دور الهامش . ●

«.. مفهوم " المثقف " صار مختزلا في العلاقة والمنفعة الذاتية .. »

هل أتاك حديث المثقفين ؟

يحلو لنا - نحن المثقفين ! - وبحكم العادة ، أن نتحدث عن الثقافة والمثقفين ، ونتحمس لكي نفرض رأيا ما أو ننشر دعوة ، حتى وإن ظهرت دعوة لن يستجيب لها واحد من المثقفين ، خاصة عندما نصر على دعوة « المثقف » ليقوم بدور ما ، أو ليتحمل تضحيات من أجل قضية ، حتى يكون فاعلا في مجتمعه ، مؤثرا وحاضرا حضورا إيجابيا .

لكن من هذا الذي نتحدث عنه ؟

بل ماهي الثقافة التي نتخذها معيارا ملزما لنا ثم لغيرنا ؟ ماهي تحديدا ؟ هل هي « دين » أو « قانون » ؟! من يزعم أنها تمتلك ما يمتلكه الدين والقانون من سلطة الإلزام والإحترام والتنفيذ ؟!

مصطلح « الثقافة» مصطلح فارغ ، وكونه كذلك ، فهو يمتلئ بمدلولات ومفاهيم متعددة ومختلفة بل ومتعارضة ، وكل من يتحدث عنها إنما يتحدث عن فهم يخصه أو يخص الفئة التي ينحاز إليها ، فهم يتمثل في تعريفات وقيم ووسائل تتلاءم مع طموحاته وسلوكه .

وهنا بالضبط تسقط الأخلاقية من مجال « الثقافة » حتى وإن دعونا إلى أن تكون أخلاقية ، وخاصة عندما تكون الأخلاقية مشروطة ومعززة بالعلم والتجرد والنزاهة والإيجابية ...

وبالطبع ، إن « الثقافة » مادامت قابلة للإمتلاء والإختلاف والتناقض ، تقبل أن تكتسي ، ظاهريا في أكثر الأحيان ، وعمليا في بعضها الآخر، بثوب الأخلاق ، وتوهم ، تبعا بأن « المثقف » كائن ممتاز ، له صفات متعالية ، عاقل ، يتحكم في نفسه ، يتجاوز المثالب التي تحكم عامة الناس ، بحيث يسقط نزواته من الحساب كلما

باشر عملا من الأعمال الثقافية وغيرها ، لأنه يرتقي إلى نموذج مطلوب ويحقق رغبة جماعية ، ويبشر بواقع أفضل .

إن « الثقافة » تحتضن مثل هذه الدعوات والأوهام ، دون أن تكتفي بها ، بل إنها تجاريها أيضا ، فتسمح لنفسها أن تكون أيضا تعبيرا عن نزوات الأفراد ، وأوهامهم وإحباطاتهم وتآمراتهم وانهزاميتهم وشذوذهم . فهي حيث يكون المثقف وغير المثقف .

واعتبارا لذلك ، يكون من الخطإ تحديد « الثقافة » بعنصر مفهومي ثابت أو مفرد ، فهذا التحديد يتنافى وطبيعة « الثقافة » عبر أحوالها التي هي أحوال الإنسان ، وعبر تاريخها الذي هو أيضا تاريخ تحولات وتبدلات الإنسان في الزمان والمكان ...

كما أن التعريفات العامة مهما بلغت من الشمول ، فهي لن تستطيع تحديد « الثقافة » ، إذ هناك فراغات تبقى غير مدركة أو متجاهلة في هذا المجتمع أو ذاك ، أو لدى هذا الذي يصف نفسه بالمثقف ، أو ذاك الذي يعارض ولا يشاطره أفعاله ولا إعتقاداته .

حقا ، نحن نتحدث عن الثقافة ، أي نطرح « فهما » لها ونستدل عليه ، وحتى يتم ذلك ، لابد من مفهوم ما

لها : مفهوم مقيد بوضع يتم فيه هذا الحديث ، ويتوخى من خلاله، إظهار عناصر مفهومية أو إلغاء أخرى ، وهذا أمر ضروري ، وبدونه يتعذر الحديث أو يصير لغوا ..

معنى ذلك أن مفهوم « الثقافة » غير قار ، وأن مفهوم « المثقف » يتغير بحسب « الوضع » الذي يتم فيه الحديث ، وبحسب السياقات التي يمكنها أن تقترح تصورات عامة أو خاصة للثقافة والمثقف .

وفي عصرنا هذا الذي يصف « الثقافة » بأنها كل أشكال التعبير التي تحقق التواصل والتفاعل بين أفراد المجتمع أو المجتمعات ، فإن مثل هذه الرؤية تتجاهل بسبب عموميتها طبيعة الثقافة وأشكالها وخصوصياتها الوظيفية ، ويتجلى ذلك بمجرد أن نبدأ الحوار مع هذه الرؤية ، وسنجد أنفسنا ندخل دوائر فارغة ، خاصة إذا لم نحدد « الوضع » الذي نفكر فيه ونعبر من خلاله عن فهمنا له .

قد نتفق أيضا ، إذا قلنا أن « الثقافة » هي أداة الفرد في ربط صلاته بالمجتمع ، عقلانيا ووجدانيا وسلوكيا ، وتعبر بذلك عن حضوره وطموحه ، لكن أمورا كثيرة تبقى معلقة بصدد نوعية الفرد والصلات الممكنة وغير الممكنة ، والحدود التي تقف قبل هذا الفرد وبعده ..

إذن ، فإن الفراغ يظل دائما موجودا كلما تحدثنا عن « الثقافة » و « المثقف » ، وهو فراغ يفرض نفسه علينا ، لأن محاصرته مستحيلة دائما وبصورة نهائية . ومن نتائج هذا « الفراغ » أننا لا نستطيع وضع تفاعل وتراتب بين الأشكال الثقافية ولا بين المثقفين ، فليس هناك ، من منظور محايد وعام ، أفضلية شكل ثقافي على شكل آخر ، ولا إمتياز مثقف على آخر ...

غير أننا مع ذلك نميل إلى التحدي ، فنحكم ونصدر الأحكام جاعلين منها مبادئ وقواعد وقوانين وضوابط وأعرافا ، لأن « الثقافة » نفسها تأبى أن يحكمها الفراغ والحياد واللامبالاة ، تريد أن تختلف وتتجاوز واقعها إلى متعدد آخر ممكن باستمرار .

ويتحصل لدينا مما سبق أن « المثقف » يظل دائما مفهوما قابلا للتحديد بطرق مختلفة ، أي أنه « موقع » نسقط عليه في كل مرحلة من المراحل « مفهوما » ما للثقافة ، فليس هناك « مثقف » ولكن هناك فقط « مثقف » يتحدد بوضع وبشروط تنسجم ووضعه الذي يعرف ، وليس بالطبع ، بالتعريفات العامة وللتصورات الأخلاقية التي تفقد أي أهمية ، لأنها تعريفات وتصورات مجردة ومتعالية

وعامة ولا تعني شيئا بالتحديد .

وهذا ما ينبغي أن نفطن إليه ، وألا نتجاهله ، لأننا ، إن فعلنا صنعنا مثقفا وهميا ، مجردا من لباسه الإجتماعي والعملي ، أي مجرد رمز أو صوت أخلاقي ، بينما نجد كل من يصف نفسه مثقفا أو نصفه نحن - في الواقع - كائنا مثلنا ، له أخطاء ونزوات ومطالب وإنشغالات ومشاغل ، ومزاج ، وكلما حاولنا أن نحاصره بتعريف نجده يتمرد ، وكلما حكمنا عليه بمقياس ، شعرنا بأننا نسقطه في فخ الوهم .

وفي وضعنا الحالي ، نحن مطالبون بأن نتمعن كثيرا في « المثقف » ، وألا نجازف بتقديم لائحة واجبات ، وعلينا أن ندرك أن « مفهوم » المثقف قد تغير بالقياس إلى مفهوم سابق . وما نراه من مظاهر السلوك في مجالات مختلفة ، في السياسة و « الإعلام » و« الثقافة » قد يؤكد ذلك ، وقد نختلف في الفهم والتقدير إذ الأمور ملتبسة والشبهة والإشتباه سمتان يصعب الحسم فيهما ، بحيث أن ما نراه إنتهازية ثقافية ، أو سرقات علمية ، أو خيانة أدبية ، قد يكون جانبا أساسيا في « تعريف » الثقافة حاليا ، مادامت الأخلاقية لم تعد شرطا ، كنتيجة لصدام ما يحدث بعنف في

الوضع الثقافي المملوء بالفراغات .

فكيف إذن نعرف المثقف حاليا ؟ وأي دور سيقوم به ؟ ماهي القيمة التي سنسقطها على المثقف ؟

ما أعلمه الآن أن القيم الأخلاقية المتعالية أمر مطلوب وضروري . لكنني أعلم أن تحدي « القيم » أمر طبيعي أيضا في الثقافة ، وأعلم أيضا أن القيم نسبية عند الإستعمال ، ومن يتمسك بالقيم في الأحوال كافة ، عليه أن يكون إشكاليا وغاضبا أو ساخرا .

ووضعنا الثقافي الحالي يدعونا إلى السخرية ، لأن مفهوم « المثقف » صار مختزلا في العلاقة والمنفعة الذاتية .

فما ينشر من إسفاف وترهات باسم الإعلام والثقافة لدليل على ذلك : فالمطربة يكفي أن يكون لها جمال الوجه وعلاقات حتى تصبح مطربة كبيرة ، وإن كان صوتها مزعجا يثقب الآذان .

والصحفي مادام صديقا لمدير الإذاعة أو الجريدة أو مؤسسة ما ، فهو بالضرورة صحفي كبير تصادفه حيث لا ينبغي أن تكون المصادفة .

والكاتب ، مادام ناشرا ، فهو لزوما كاتب عملاق .

والشاعر أو الروائي ، قد يصبح عالميا بمجرد أن تحتضنه مؤسسة مشبوهة .

وقس على ذلك ما تشاء ، وأضف إليهم من يتقن مكر النميمة والدسيسة .

ولم لا ؟ .. أليست الثقافة في نهاية الأمر ، وفي وضعنا الحالي ، ترجمة لوضع الإنسان في علاقته بالمجتمع ؟ أليس الذكاء العملي ترجمة ثقافية للإنسان ؟ أليس « المثقف » إنسانا من البشر ؟

ومع ذلك ، علينا أن نقر بأن هذا يدخل ضمن الإستثناء ، وأنه يحدث لدينا وفي أماكن أخرى . وعلينا أن نملأ « الثقافة » بمفهوم يستجيب لنا ، وينقل « المثقف » إلى حالة مغايرة نتصورها وضعا أفضل تنسجم فيها القيم والسلوك ، ولو بقينا إشكاليين وغاضبين وساخرين ونحلم بطريقة مختلفة . ●

« جعلنا واقعنا الـسياسي والثقافي مـرضي بالحساسية وابتـعدنا بها عن الإبداع والفكر.. »

الحساسية

يظل مفهوم « مثقف » مفهوما غامضا وقابلا للإمتلاء بمدلولات مختلفة ومتعددة ، وبحاجة إلى مفاهيم شارحة تحف به حينا وكأنها مرادفة ، وحينا تلصق به بوصفها مرادفة ، وتتعلق به حينا آخر باعتبارها شروطا ؛ وتتوارد على ذهن المعرف كلما أراد التعريف ، وعلى لسان الواصف حين ينزع إلى الوصف ...

ويترتب عن ذلك نفس القول عن مفهوم « الثقافة » ، فهي تستدعي إستحضار المفاهيم الشارحة المشار إليها ،

ومنها على سبيل التمثيل : مفهوم العلم والعقل والذكاء والبديهة والإبتكار .. إلخ . وهي إذا تأملناها وجدناها غامضة بدورها ، وتدخلنا في « دورة » فارغة دون أن تمكننا من وضع اليد على شيء محدد بدقة .. وتجرنا جرا إلى التعميم ، حتى تبقى واردة في تعريف ووصف أشياء كثيرة .. منها « المثقف » وغير المثقف .

ومع ذلك ، فكثيرا ما يدعي « المثقف » إمتلاك تلك المفاهيم الشارحة ، وكثيرا ما يتوهم أنه من خلالها يمكن أن يمارس « الإبداع » في الفكر والفن والأدب ... غير أن صفة « المثقف » ولو اتفقنا على تحديدها لا تكفي هنا ... لأن شرط الإبداع إن كان يتطلب بالضرورة « ثقافة » ، فهو بحاجة إلى شرطين آخرين يعطيان لهذه « الثقافة » بعدا آخر وحضورا مختلفا لا يبقى معها « المبدع » مجرد « مثقف » فقط ، وهما شرطان يمكن أن يلتقي أحدهما بالآخر ضمن مفهوم مستحدث في التفكير النقدي المعاصر ، وأعني « الحساسية » ، (كما رآها مثلا إدوارد الخراط وصبري حافظ ..) .

و « الحساسية » كمفهوم - بعيدا عن المدلول الحرفي والأصلي - تعني أن الذات المثقفة حققت لها علاقة خاصة

بالثقافة والعالم والمجتمع ، وبنفسها في الآن نفسه .

بمعنى أنها أصبحت تعيش تجربة بالقدرة على التمثل والتجاور معا كشرطين .

وهذان الشرطان يكادان يجعلان من « الحساسية » تنبؤا : فعبر « التمثل » ، تقع الإستجابة لأعمق حاجات المجتمع أو الفئة التي ينغمر فيها « المثقف » ، ومن خلال « التجاوز » يتحقق تعالي المثقف على ذاتية الفردية وتكسير الحدود الأنانية والمواضعات المألوفة التي تقيده .

وعبر الشرطين معا ، تدخل علاقة الذات بالعالم إلى مجال ينأى عن النرجسية والسطحية ، عن الكلامية والتسجيلية ،عن الظرفية والمنفعية ، عن المباشر والظاهر ، وعن الإدعاء والتبعية .

ومن ثم ، فإن الإبداع لا يقاس مباشرة ، ولكنه يقاس بناتجه كامتلاك للعالم وإدراك لما هو ممكن وجوهري ومستقبلي ؛ كما أنه لا يحال إلى السائد الثقافي ، ولكنه يحال على العلاقة المذكورة ، متمثلة في شكل تجربة مضاعفة بالواقع والمجتمع والفكر والثقافة ، حيث تكون التجربة متوترة ومعقدة ، من جهة كونها تجربة ذات مع العالم ، ومن جهة كونها تجربة عبر وسائط من الرموز

والعلامات والقيم ، تجربة تبحث عن توافق وحل في صيغة معادلة لها في الفن والأدب ... وبحاجة إلى تأويل لكي تفهم ؛ كصيغة تظهر للبسطاء مرضا وغرابة وشذوذا وجنونا ...

ومن هنا ، تأتي « الحساسية » لتضع « المثقف » في وضع مختلف ، لا تنفع في شرح عمله مفاهيم مثل العقل والذكاء والعلم ... ويكون أثره شيئا مختلفا بدوره ـ وإن كنا نتحدث عنه بمفاهيم الثقافة نفسها ـ ، فهو شيء متميز ومتفرد داخلها بالضرورة .

إن الحساسية إذن ، ليست مرضا ، ولكنها تجسيد لعلاقة نوعية بالعالم والثقافة وبالذات ... هي شرط الإبداع وشرط القراءة والنقد معا .

في مقابل « الحساسية الإبداعية » تقف حساسية من نوع مخالف ، وهي « الحساسية المرضية » والتي تقتحم مجال الكتابة والقراءة بعدد من الأوليات التي تمكن « الذات » من صهر التناقضات وتذويب التشوهات التي يفرضها العقل ويستبعدها الذكاء ؛ إنها أوليات تنصب الذات مرجعا ومركزا يستقطب الإشارات والعلامات والرموز والصور والكلمات كلها .

الذات هنا ، ذات نشيطة ومتوزعة ، وتبحث عن نفسها في ماهو متوزع ومتعدد ومختلف ، وتوهم نفسها مع ذلك أن لها « ذكاء » خارقا باكْتِشاف حضورها في العالم ، وفي اللغة ، وفي كل ما تقرأ ؛ ولكن هذا « الذكاء » ليس سوى تعبيرا عن حساسية مفرطة مرضية . لا يمكن أن تجد حجة معقولة أو مقبولة خارج الأواليات التي تتزود بها .

إن الحساسية المرضية ، حساسية أنانية في البدء والختام ، تنخرط في الكتابة لتحولها تعويضا وتمارس القراءة لتصنع منها إنعكاسا وإسقاطا ، لذا فإن ناتجها في الإبداع لن يكون سوى نتاج « حالة » ، وفي أحسن الإحتمالات يمكن أن يكون ذا « قيمة » لا تقاس بمقياس الإبداع ، ولكن بمقياس إكلينيكي من نوع يجوز تسميته بالحالة المتفردة أو الشاذة . أما في أغلب الأحوال ، فلن تكون لها سوى قيمة الحالة النمطية المنتشرة لدى من يملكون إحساسا مفرطا بالذات مدعم برصيد ثقافي يبرره .

وما أكثر هؤلاء الذين يحركهم الإحساس المفرط بالذات ، وما أقل حضورهم في عالم الإبداع والقراءة ، وإن وجدوا كثرة فيه ؛ فوجودهم ليس حضورا ، لكن التجاوز صار تجاوزا نفسيا للعالم لصالح الذات ، والتمثل أسس تطابقا

بين الذات والصورة التي تكتبها أو تقرأها .

حقا إن اللغة الإبداعية تلتبس باللغة المرضية التي ينشئها ذوو الحساسيات المرضية ، وتستجيب لهم وإليهم ؛ إذ أن اللغة الإبداعية بسبب إنحيازها عن الجاري والمعتاد بين مستعملي اللغة العاديين ، وميلها تبعا إلى « الإستعارية » ، فهي تفسح مجالا خصبا للتأويل تغتنم الذات فضاءه وتجد فيه مكانها ، بل وتعمد إلى إعماره وملئه بالتقاط كافة الدلالات الكنائية المتعلقة بها لزوما أو إيحاء ، ثم تشييده صرحا واهيا بالجمل والحروف ، يعطيها وجودا وهميا ، إما يغرق الذات في العالم ، أو يلغي العالم في الذات ..

فالعلاقة باللغة جزء من العلاقة « بالعالم » ، ومن ثم ، فالفرق قائم بين علاقة الحساسية المرضية باللغة وعلاقة الحساسية المبدعة بها .

إن الذات المبدعة لا تجعل اللغة سكناً لها ؛ ولا تستمد منها حضورها كسجن ، عكس الذات المرضية التي تجعل اللغة جحيما لها وسكناً غير آمن .

نعم إن اللغة ملكنا المشاع ، أصواتها وحروفها ، نحوها ومعجمها ومخزونها الثقافي ومحمولها الرمزي ؛ وحياتنا

مرسومة باللغة ، ووجودنا وجود لغوي ، يعطي لوجودنا الماضي وعيا به ومعنى ؛ لذا لكل واحد منا حق في كلمات اللغة . ومن هذا الذي ليس له « رأس » أو « إسم » أو « قامة » أو « عين » ومن ذا الذي لا تهمه « الأسماء » ، كل الأسماء ومن ذا الذي لا « يحب » ولا « يكره » ؟

العالم يحيط بنا ، ويحيط بنا كلغة ، ويلاعبنا ونلاعبه غيابا وحضوراً ورؤية وتذكراً وتجاهلا .. والقصير منا يرى نفسه في كل قاف وصاد وراء ، سواء ارتبطت الحروف طرداً أو عكساً، بل ويرى نفسه في كل « قامة » ويحسبها قياساً أو تعريضاً أو نفياً ..

و « الكاتب » بيننا يحسب نفسه مقصودا بكل كلمة عن « الكاتب » و « الكتابة » فما بالك « بالمثقف » و .. و..

نحن غارقون في اللغة ! عفوا اللغة بحرنا الذي يغرينا بالغرق أو السباحة أو إكتشاف الأعماق .. وكل ما في هذا « البحر » يعنينا ولا بأس أن يسكنه بعض أصحاب الحساسيات المريضة أو يغرقوا فيه انسياقا من ثقل الذات أو إنجرافا مع نزوات الذات وأهوائها .. ولاأحد يملك وصاية فيه ، فحق أشباه المثقفين والكتاب مثل حق غيرهم من العقلاء والمجانين . فهم أمام « البحر » أو « اليسار » أو

« النار » دائما في قلق وحيرة ودهشة .

والدهشة عند أصحاب الحساسيات الإبداعية تمنح أفقا غير متوقع ، شبيهها بالبراءة والفطرة والمرآة الساحرة التي لا تريك وجهك أبداً ..

لكن أصحاب الحساسيات المرضية لا يرون غير وجوههم ، ويتمحلون لكي يجدوا وجوداً بين شقوق المرايا وشظاياها .. لأنهم يبحثون عن أنفسهم فقط ؛ ومن يبحث عن نفسه في اللغة لابد أن يجدها على غير ما يهوى . ومن أراد أن يحسب كل صيحة عليه لابد وأن يسمع صوت نفسه ضد نفسه ..

ومع ذلك ، يبقى الفرق قائما بين « المبدع » و« الحالة »، بين الإبداع والمرض ، بين الذات المتجاوزة لنفسها والذات الغارقة في سجنها .

هناك فرق بين من يملك اللغة فيفجر أسرارها ، وبين من تملكه اللغة فتقيده داخل سراديبها ، ليكون عبدا بحجم نواقصه فقط .

ولا لوم ، ولا تَثْريب !

فلقد جعلنا واقعنا السياسي والثقافي مرضي بالحساسية وابتعدنا بها عن الإبداع والفكر و .. ●

« الثقافة حرث يسعى إلى تشجير كل الصحاري التي تحاصرنا .. »

حرب الثقافة لن تقع

قد يتساءل القارئ وهو يقرأ لكاتب ما ، بأي حق يكتب الكاتب ويدعي ما يدعيه ؟ . وقد يتساءل القارئ حين يجد في نفسه شيئا من الغيرة على الكتابة والثقافة عامة : بأي حق يسمح مثقف / كاتب لنفسه أن يقف موقف الوصي على الثقافة والمثقفين ؟؟ بالطبع ، لا أحد يملك حقا في ذلك إلا بمقدار الحق الذي يشترك الجميع فيه ؛ إذ الثقافة وبكافة أشكالها تظل دائما ملكاً مشاعاً ومشتركاً ، يتحرك الجميع فيه بتقدير مبادئ

تعامل معينة تحددها في كل مرحلة قيم ورموز تكتسي لدى الفئات الإجتماعية والأفراد دلالات لا تتطابق بالضرورة إلا بشكل نسبي ..

وعندما يتساءل القارئ المثقف ويطرح أسئلته بالصيغة الآنفة ، فلأنه يتمثل مبادئ معينة ويشعر بأنها قد انتهكت ، على الأقل في تصوره ، وأن قيما شوهت ، ثم لأنه لا يجد ما يبحث عنه وينتظره .

القارئ حين يقرأ ، منشغل بشيء ما ، يستجمع ملامحه وظلاله من المقروء ؛ إنه صاحب حاجة . والقراءة ، مثل الكتابة وبقية الأشكال الثقافية تلبية حاجة ، أو رغبة في تحقيقها ؛ حاجة قد تكون فكرية أو وجدانية ؛ حاجة عملية أو جمالية . وبقدر ما تتعين تلك الحاجة وتتحدد في ذهن القارئ والكاتب يتم التواصل ، ويُولد تبعاً لذلك أحد أهم مكونات « الحق » الذي يصبح مع الوقت أفقاً تصطدم به الأسئلة وترتكز عليه « سلطة » المكتوب والكتابة والكاتب ..

لكن مع ذلك ، فإن ذلك الأفق سراب ، سراب بقيعة يحسبه الكاتب أكثر الأحيان ، ماء وماهو بماء ، ولكنه مجرد مداد قابل أن يرسم حينا ويوسخ حينا ويحجب الرؤية

أحيانـاً ؛ خاصـة إذا أصبـح «الحق » المزعـوم مـبرراً لإدعـاء الوصاية وإعتراض السالكين في مجال الثقافة .

ومن ثم تكون « حـروب » المثـقـفين / الكتـاب ، حـروباً وهمـيـة من أجل أفق وهمي ، تنعكس على سطحـه بوارق سلطة لا يملكها أحد بصفة مطلقة .

وهي حروب خاسرة بالضرورة ؛ لأنها ما تكاد تبدأ حتى تغادر الثقافة مكانها ومواقعها ، لتترك الأشخاص وحدهم مع مصالحهم ومراكزهم وأوهامهم ، لتظل الثقافة قبل ذلك وبعده تحفر ، بدءاً من فعل الكتابة وسواه ، في جغرافـيـة الذهن والوجدان ، بعيـداً عن محـترفي الحروب وحطبـهـا ؛ فـالثـقـافـة حـرث يسعى إلى تشـجـيـر كل الصحـاري التي تحاصرنا ...

حقا إن بعض المثقفين / الكتاب ! يتـوهمـون ويزعـمـون ، ويتـمنطقـون بسـيف السلطة التي لا يتـفـرد بهـا أحـد ، ويحـرصـون على أن يكون رأيهم كـيـمـيـائيـا وخندقـاً وديوان تفتيش ، ويجعلون من القلم صاروخا بيولوجيا وكيـميـائيا . ولا يكفيهم ذلك ، فهم يقتحمون « كواليس » الثقافة ليشنوا غارات غير متوقعة لتشويه سمعة كاتب أو فنان ، يعترضون على نشر عمل يرهبون ظهوره ، أو ليـخـتـلسـوا جهـداً بعد

تحريف وتغيير .

من حسن حظ الثقافة والمثقفين أن الثقافة عصية على التحديد أشكالا وأحجاما ، وتنتشر في كل البقاع ، فهي دائما تشق مجراها في مجال هو مجال المبادرة والحرية والمبادئ أيضا ، المبادئ التي لا تلزم أحداً إلا من اقتنع بها .

لذلك فإن حرب الثقافة لن تقع ، فليس في المسرح أميرال ، وليس للرواية ماريشال ، وليس على التاريخ ملازم ، وليس للتشكيل أو النقد كومندان ، ولا في التربية وعلم الإجتماع جنيرال أو لواء أو عقيد ..

حرب الثقافة لن تقع ! وإذا وقعت وقعت في هوامشها وعلى حدودها ؛ حيث ينبغي أن يجد المثقف / الكاتب مكان إستراحته ويلقي تحية سلام . ●

« من يستعجل « المجد » الثقافي يسقط عند الخطوة الأولى .. »

الصراع الثقافي

تظل المفاهيم الثقافية ، والعلمية تبعا ، مفاهيم نسبية التحديد . وهي في سعيها إلى الإنضباط والتطبيق تثير الإختلاف أكثر مما تثير الإتفاق ، ذلك لأن الثقافة نفسها بناء غير منسجم في الزمان الواحد والمكان الواحد أيضا . بل هي أصلا حصيلة إختلاف أجلى مظاهره التعدد والتنوع . بمعنى أنها نشاط ديناميكي ووظيفي يرفض تلقائياً . كل نزوع إلى الثبات ، ومتى استقرت الثقافة وطغى عليها الثبات صارت شيئا آخر ،

فأصبحت دينا ودينا بدائيا بكل تأكيد ، يرسخ سلطة جماعة قاهرة ..

ولعل أجلى مظاهر الدينامية الثقافية ، ذلك النقاش اليومي الذي يسود بين أفراد المجتمع على إختلاف مستوياتهم ، وأشد أنواعه ذلك الذي تمارسه بقصد فئة من المتعلمين ، والذين ينظرون إلى الثقافة بوصفها نشاطا ينتجونه أو يستهلكونه . ومن الطبيعي أن يتميز نقاش هؤلاء بالحدة والعنف ، وأن يتسم بالكثير من مظاهر النفي والإقصاء ، خصوصا وأن الدينامية التي تحرك المجتمع تتقمص النقاش الذي يخوضونه في الثقافة باسم المجتمع والثقافة معا ، وإذا خلا من الحدة ، فمعنى ذلك أن الدينامية الإجتماعية مصابة بعطل كبير ، أو أن سلطة الصوت الواحد تفرض نفسها فرضا قسريا .

غير أن حدة النقاش بذاتها لا تنتج ، فمن المفروض أن الدينامية هي دينامية بدائل ، أي إنتاج للأفكار والقيم والأعمال ..

ليس علينا إذن ، أن نخشى من الجدل والنقاش كلما كان عنيفا ، وليس علينا أن نصفق لكل مداهن ومنافق ، وليس علينا كذلك أن نجزل الثناء لمن يعطي وينتج .. ولكن علينا

فقط ، أن نتعلم كيف نضع الأمور في الوضع الذي يخدم الثقافة والمجتمع ، وأن نلقن أنفسنا كيف نتركها بعيدة عما نناقش وننتج .

ليس علينا أن نقلق للجحود الذي يسود الوضع الثقافي . فالجحود مدعاة للعمل وإن قصد إلى إشاعة الإحباط ، ولأنه جحود فهو يدعونا إلى تحديه ، لا بوصفه أحد أساليب الدينامية الثقافية فقط ، ولكن لأنه محك وإختبار للذات كي تتنازل عن ذاتيتها .

علينا أن نقر بأن مثقفي جيل واحد (الجيل المهتم بالثقافة كاحتراف) نادرا ما يعترف فيه أحدهم بالآخر ، وإذا حدث الإعتراف دل على نزوع غير ثقافي في أكثر الأحيان ... أو دل على وجود تطابق ما لوجهات نظر أو مواقف محدودة بالقياس إلى ما ينبغي أن يكون من الإختلاف .

منطق الصراع الثقافي عادة ما يجسده الجيل الواحد مع نفسه ومكوناته وتطلعاته أولا ، ولا يحسم فيه أبدا وعلى الجيل الذي يأتي بعد ذلك أن يخوض نفس الصراع ، وأن يأخذ مما مضى ، فيعترف تارة وينكر تارة .

لذا ما ينبغي أن نتعلمه ، أن من يستعجل « المجد »

الثقافي يسقط عند الخطوة الأولى ، وأن من يضع نفسه (ذاته) مقياسا ينفي نفسه أولا وأخيرا .

لنتعلم إذن ، كيف يكون الصراع الثقافي في الثقافة لا حولها ، ولا في بيوتنا الشخصية .. أن يكون الصراع صراع أفكار ومواقف ، لاصراع أشخاص .. ●

« .. من حق المثقف أن يكون كارها للسياسة.. »

السياسي والثقافي

عندما تعلو أصوات بعض المثقفين داعية إلى الفصل بين الثقافي والسياسي قد لا يدركون أن أصواتهم تلك ، ماهي إلا صيحات لها صورة خطاب سياسي ، أو على الأصح تتخذ بعدا ثقافيا ـ سياسيا ؛ كلما حللناها كخطاب ، إلا وجدناها مسكونة بنبرة إنتقادية معارضة لواقع سياسي سائد ، أو لإختيار ثقافي مهيمن ، أو معبرة عن ضيق صدر بما يحدث في الواقع الثقافي من إختلاف وتناقضات ، ينظر إليها من خلال تصور ما للثقافة

وللسياسة معا .

ومن بين الحجج التي يتوسل بها هذا الخطاب ، دعوته إلى الإخلاص للثقافة علما وفنا .. وهي دعوة لا يناقشها أحد ، لأنها مصادرة ، أو بديهية ، فلا أحد يجرؤ أن يدعو المثقف إلى العبث واللاجدوى . من واجب المثقف حقا أن يخلص للعلم إن كان عالما ، وللفن إن كان فنانا ، وللكتابة إن كان من الذين أدركتهم حرقة الكتابة ؛ شرط الإخلاص للعلم والفن والكتابة ، شرط قد يبدو أخلاقيا بينما هو مشحون سياسيا أيضا ، لأنه يفضي إلى منطقة حساسة ؛ يصبح الإخلاص فيها للعلم والفن والكتابة مؤثرا في أشياء هي بعد العلم والفن والكتابة ، أشياء تتجاوز ذات المثقف إلى غيره ، وتمس منطقة مشتركة .

وإذن ، حين ترتفع صيحة الخطاب ملحة في طلب الإخلاص للثقافة ، فهي تمثل حقا رغبة مشتركة ، قد تظل رغبة فقط ، وإرادة المثقف الفردية قد تنجح في تشخيصها حينا ، إلا أنها سرعان ما تذهب جفاء إذا لم توافقها إرادات جماعية ، مادامت ممارسة العلم والفن إستجابة إجتماعية في البدء والنهاية ، إستجابة المثقف للمجتمع تنظر إستجابة وقبولا وإستهلاكا .

إنها رغبة مطلوبة ، والعوائق التي تحول دون تحققها ليست عوائق داخل العلم أو داخل الثقافة ، وإنما هي عوائق قائمة خارج ما يراه المثقف علما وفنا وكتابة ، إنها عوائق سياسية . ومن ثم ، فإن « المثقف » لا يعاني من العلم والفن أساسا ، بل هو يعاني من وضع عام ، ومشاكل المثقف هي مشاكل صنعها مناخ سياسي ؛ لم يحاصر المثقف ، عالما وفنانا وكاتبا ، إلا لأنه يحاصر الثقافة أو أنواعاً منها واختيارات فيها .

بالطبع ، من حق المثقف أن يكون كارها للسياسة ، وكره السياسة نوع من السياسة أيضا .. وحين ينغمر في البحث والكتابة والإبتكار ، يدخل السياسة من الباب الواسع ؛ ويتورط فيها ، علم ذلك أو لم يعلم ؛ حيث يكون قد اختار موقفا ما ، وحمل رأياً وعبر عن رؤية .

ومن ثم ، عليه ألا يغالط نفسه ، وإذا ما كره السياسة عليه أن يكون منسجما مع نفسه وعمله وأن يواجه السياسة التي يكره ، والسياسة سياسات وإختيارات ...

أما معاداة السياسة جملة وتفصيلا وبصورة شاملة ، والتعبير عن معاداتها بخطاب يدعو إلى الفصل بين السياسي والثقافي ، فما هو إلا خلط للأوراق وإزدواجية

مقنعة ، مبررة بخدعة لا تفرق ما بين الإختيار والإختيار بقصد تمرير نوع من « الثقافة » وخدمة السياسة في حالها السائد ، والتسليم بأمرها كواقع ... ●

« الثقافة والسياسة مستحيلان خارج المجتمع وبدونه ، ووجهان من وجه حركته الهادفة .. »

الثقافي و السياسي

يحرص رجل « الثقافة » ورجل « السياسة » على أن يكون لهما رأي وحضور ، ويريد كلاهما أن يكون حضوره ورأيه موافقين للمجال الذي يتحرك فيه ، فالمثقف يعلن عن نفسه بصفته « مثقفا » ، والسياسي يتوق إلى إحتلال موقع بصفته رجل سياسة .

وهذا معناه أن كليهما يكتشف صعوبة الموقع الذي يريد الوصول إليه ، من جهة التحديد ومن جهة التحكم فيه ، إذ أن الثقافة والسياسة ليس لهما حدود في الواقع ، حتى وإن

ظهرا في الذهن مختلفين ومتمايزين .

حقا إنهما عادة ما ، يحكمان بوجود فصل بين الثقافي والسياسي ، ويميلان إلى تعريف الثقافة بما يجعلها مغايرة للسياسة .. طردا وعكسا؛ فيزعم « المثقف » أنه غير معني بالسياسة ، ويتعالى « السياسي » عن أن ينعت نفسه فقط بلفظ المثقف ، ويقترح " المثقف " تعريفا لمجاله الخاص بأنه مجال إبداع وتواصل ورموز . ويحصر السياسي مجاله في حدود الفعل المباشر الذي يستهدف تنظيم المجتمع والهيمنة عليه .

لكن مع ذلك ، يظل الفصل إياه ، فصلا معرفيا ونظريا ، مادام الفصل غير قائم في حياة المجتمع وفي الواقع العملي ؛ حيث أن الثقافة والسياسة معها مستحيلان خارج المجتمع وبدون مجتمع ، لأنهما معا وجهان من أوجه حركته الهادفة إلى إعطاء المجتمع تنظيما عمليا وذهنيا .

إن الصلة بين الثقافي والسياسي صلة طبيعية وضرورية ، وتتمثل في مستويات يصعب حصرها : تتيح لهما قدرة دينامية لا تحد منها سوى دعوة إقامة الفصل بينهما ...

فليس هناك خطأ يترتب عن وجود الصلة بين السياسي والثقافي ، ولكن الخطأ كل الخطإ ، أن نزعم أن هذا الفصل

موجود وقائم عمليا ، إنه فصل نظري من إبتداع الفكر حين يريد أن يميز بعض الخصوصيات ، وأن يرتفع من حدود الفعل والممارسة إلى مجال التجريد ، هذا الفكر الذي يتسبب في خلق الإلتباس وهو يطمع في إزاحة أسبابه ، ثم يسمح بأن ينتقل الإلتباس إلى الممارسة نفسها ؟

إن الإلتباس القائم ليس إذن بين الثقافة والسياسة ، ولكنه راجع إلى عدم التمييز بين وجودهما كفعلين إجتماعيين ووجودهما كتجديد ومعرفة وتنظير ؛ وهو إلتباس يرتضيه كثير من المثقفين والسياسيين ، عندما يكتفون بالحضور الشكلي والإفتعالي والترفي داخل المجتمع .

أما « المثقف » المنخرط داخل حركة المجتمع ، والسياسي الفاعل ، فهما في كثير من الأحوال يجدان نفسيهما في موقع واحد ، سواء ذهبا إليه مباشرة أو بطريقة غير مباشرة . إنه موقع واحد لا يمكن الترفع عنه أو التعالي عليه ؛ وهو المجتمع بداية ونهاية .

إن الدعوة إلى إقامة الفصل ـ خارج حدود العلم ـ معناه إذن ، خلق « مقاومة » للثقافة أو السياسة من داخل هذه أو تلك ، مجرد فعل ومعارضة ...

والسياسة تفشل بكل تأكيد حين لا تكون ذات رؤية

ثقافية .

والثقافة تصبح مجرد صيحات مفتلعة حين لا تخدم مجتمعا ، أي لا تتضمن رؤية سياسية ولو ضمنيا .

وهذا كلام يحتاج إلى تفصيل ... ●

« .. لا وجود لمجتمع بدون ثقافة أو بدون سياسة .. »

خطاب السياسة / الثقافة

تقوم ، بين الخطابين « الثقافي » و « السياسي » ، أكثر من علاقة تجعلهما خطابين مترابطين ومتداخلين ، إلى درجة يصير الترابط والتداخل موهمين بالتطابق ، مما يتسبب في خلق إلتباس لا يخدم أحدا منهما .

وإذا كانت علاقة الخطاب السياسي والخطاب الثقافي بالواقع الإجتماعي علاقة مرجعية وغائية في آن ، وإذا كان كلا الخطابين يحمل أكثر الأحيان مضموناً إيديولوجياً لدى

الفئة الإجتماعية الواحدة أو السلطة نفسها ، وإذا كان أيضا رجل السياسة يطمح إلى أن تكون له مواقف ثقافية ، مثل « المثقف » الذي يقتحم مجال السياسة معبراً عن آراء وتصورات سياسية ؛ فإن ذلك كله ، بقدر ما يفسح المجال للإلتباس ، فهو يدعو كلا الخطابين معاً ليتمايزا ويتخصصا بالبحث عن لغة (أو إصطلاح) ترفع الإلتباس ، وعن مبادئ ومعايير تحدد نوعية الترابط والإلتقاء ، وترسم لهذا وذاك بعده المعرفي ، وأيضا طبيعة العلاقة بالواقع من جهة ، وعلاقة أحدهما بالآخر .

حقا إن الإلتباس يتيح للخطابين معاً عدم المبالاة بالخصوصية ، ويدفعهما لكي يحتلاً مساحة أكبر ، بحيث يعمد الخطاب السياسي عادة إلى إدماج الثقافي فيه ، والهيمنة عليه لغاية الإنتشار والتوسع - والعكس وارد أيضا - وهذا أمر قد يبدو طبيعياً ، بل وضروريا لدى بعض الإختيارات السياسية مادام مجال السياسة والثقافة مجالا حيويا للجميع ، أفراداً وجماعات ؛ حيث لا وجود لمجتمع بدون ثقافة أو بدون سياسة ، كما أن هاتين لا وجود لهما بدون إنسان يمتلك قدرة التعبير بإبداء رأي حول ما يحيط به .

لكن الإلتباس القائم ، رغم مبرراته ، يظل دائما معرقلا لوظيفة كل خطاب ، ومانعاً له من إمتلاك موقعه وموضوعه . ومن ثم ، فإن « تراكم » الخطابين يظل مجرد تراكم تشويش ، مهما كثر ، وتراكم تكرار وعموميات .

هذا التراكم إذن ، لن يكون سوى تراكم الإلتباس الذي يسمح لصاحب الخطاب الثقافي أو السياسي بالإنتقال عبر مواقع غير مقيدة ، ليمارس « سلطة » ما تريد أن تكون مراقبة ومهيمنة دون أن تكون هي في موضع مراقبة ومحاسبة ، بمعنى آخر لتمارس الإقصاء واحتلال المواقع ، باسم السياسة والثقافة معاً وحسب الأحوال ، بعيداً عن أي إلتزام واضح ومحدد وبدون سلوك ثقافي أو سياسي فعلي ، في أكثر الأحيان .

فالإلتباس إذن ، لا يخلق سوى الإلتباس ، وكل من ينجز خطابا داخله ، ثم يمارس فعل الإقصاء والحديث باسم سلطة ما ، فهو يمارس الإقصاء على نفسه وخطابه معاً . ●

« من يتوهم بأن الفصل قائم وممكن في الممارسة الثقافية ، هو واهم ليس إلا.. »

الثقافي ... أخيرا

من حق الشخص الذي نسميه « مثقفا » أو يدعي لنفسه هذه التسمية صفة أو إحترافا ، أن يبتعد - إذا استطاع - عن السياسة ، وأن يعبر عن نفوره منها ، فذلك حق لن ينتزعه أحد منه ؛ إنه حق يستحيل إنتزاعه ، ولكنه في هذه الحالة ، عليه أن يدرك ، أن ابتعاده عن السياسة ما هو إلا رغبة ، تخفي موقفا سياسيا من إختيارات سياسية قائمة ، وطموحا إلى سياسة مغايرة ، سياسة قد لا يسميها وقد لا يعيها .

كذلك ، من حق « المثقف » أن يضيق صدره بممارسات سياسية تكرس سلوكا معاديا للقيم الثقافية التي يؤمن بها ، أن يغضب لأجل أخلاق ثقافية يعتقدها كلما رأى أفعالا تزري بالسياسة التي يتصورها فعلا مسؤولا ونزيها ، وتخل بالنموذج الثقافي الذي يدعو إليه ، ولكنه إذ يفعل ذلك ويعبر عنه ، مباشرة أو بأسلوب غير مباشر ، مطالب بأن يعلم أن مجال الثقافة والسياسة مجالان يلتقيان بالضرورة ، لأنهما مجال صراع إجتماعي ، وأن هذا الصراع يمر بوسائل وطرق متعددة ، وأن ممارسة الصراع الإجتماعي تحرك الأدوات المادية والعملية والرمزية في آن واحد ، وحيث أن الصراع الإجتماعي ليس في نهاية الأمر سوى جدل بين واقع قائم وواقع آخر ممكن ؛ بين مصالح ومصالح تترجم عمليا في شكل مواقع وتنظيمات وخطابات ، لها حركة واحدة تتجه نحو « السلطة » أي الهيمنة . فهو إذن ، إما أن يقبل الحياد ، والحياد لا يخدم سوى السلطة القائمة عادة ، وإما أن ينحاز إلى جهة من جهات الصراع ، وهذا الإنحياز قد يكون ميلا عفويا أو إنخراطا فعليا صريحا .

وإذا ما ادعى المثقف ـ المبدع على وجه الخصوص ـ بأن أمر السياسة أمر لا يعنيه ، وهذا حق لن يصادره أحد ،

لكنه ما أن يمارس الإبداع ، الذي هو أحد أشكال الثقافة الأكثر إغراء بادعاء الحياد والإبتعاد ، حتى يكون قد وضع نفسه بإبداعه ، ضمن حركة الصراع الإجتماعي وانحاز إليه ، ولو من خلال موقف الحياد ، بطريقة عفوية أو غير معلنة . بمعنى أنه ادعاء فقط حتى في حالاته الموصوفة بالصدق والبراءة ، وربما حين يدعي ذلك بصدق يسقط في بئر السياسة العميقة ، ليكون معبرا عن أعمق دواعي الصراع الإجتماعي ، الساكن في ضمير الجماعة التي يكتب لها أو من خلالها ، ويلبي رغباتها أو يمنحها شيئا يشبع رغبتها ، فيشدها إلى واقعها أويفسح أمامها منافذ تسلك منها إلى واقع آخر ، منافذ تظهر إبداعيا بصورة حلم أو تخييل أو علم ...

لكن المثقف الذي تصدق دعواه هنا لابد أن يكون مثقفا حقا ، أي مبدعا وصادقا في إدعائه ، وليس كل المثقفين مبدعين ولا كل المبدعين في درجة واحدة ، ولا ينبغي أن يكونوا كذلك ، لأن المجتمع يحتاج إلى مستويات مختلفة ومتفاوتة ، لأنه حصيلة تشكيلات وحاجات تظل دائما متفاوتة ومتصارعة .

ومن ثم ، فإن المثقف مهما أراد أن يبتعد عن السياسة ،

فهو عاجز عن ذلك ، وكلما أدرك موقعه بوضوح إلا ألفى نفسه مجرورا إلى أن يكون له دور فيها وموقع ، لا من أجل السياسة في ذاتها ، ولكن من أجل الثقافة نفسها ، حتى يمارس « الثقافة » التي يهوى .

إن « المثقف » ليس مجرد منتج للثقافة ، ليس موجودا في جزيرة فاضلة تقتصر وظيفته على إبداع الفن والفكر ، إنه موجود في مجتمع يتحرك ويتصارع ويكيف وظيفته ، ويعطيه صفته ، ويبيح له ما يبيح ، ويراقبه أو يحرمه من أشياء يتوق إليها ، لذلك فإنه مطالب بأن يدعو إلى « الحرية » و « الحق » في « الإختلاف » أن تكون له « حقوق » وتوفر له شروط .

من يتوهم الفصل بين الثقافي والسياسي (خارج دائرة العلم والتفكير العلمي) ، ويتوهم بأن الفصل قائم وممكن في الممارسة الثقافية ، فهو واهم ليس إلا ، اللهم إذا استطاع أن ينعزل إنعزالا عن الثقافة والمجتمع معا ، وقرر أن يتجاهل الجمهور ، والإعلام ، والنشر والتوزيع والطبع ، وأن ينشغل مع نفسه ولنفسه فقط ، غير معني بوجود وزارة للثقافة ، ولا مسرح ولا جامعة أو مدرسة أو جمعية أو قاعة معارض أو مكتبات أوملتقيات .. وتلك قبل أن تكون وسائل

وتنظيمات ثقافية ، هي وسائل وتنظيمات تتحرك داخل السياسة بالسياسة ، فهل يستطيع المثقف أن يستغني عنها ؟ ●

« عندما نصنع مـؤسسة ثقـافية ، نكون قد وضـعنا قدما راسـخة في أرض متنازع حولها دائما .. »

أخلاق الثقافة

يواجه المثقف باختياره أحيانا ، ورغما عنه في أكثر الأحيان ، صراعا متلون الأشكال ، فبالإضافة إلى كونه شخصا تحاصره مقتضيات الحياة العملية ، الإجتماعية والمهنية ، والتي تدعوه ، بالرغم من حكمته أو تعاليه المبالغ فيه ، إلى خوض الصراع مثله مثل كل الأفراد العاديين ، وهو يأبى إلا أن يحتمله شاعرا في الآن نفسه بتميزه وإمتيازه ، ويميل إلى الترفع والإنعزال وكأنه يملك كنزاً لا يقدره الناس حق التقدير ، ولا يكشف عن خباياه إلا

إذا أدرك أنه يخوض صراعا مناسبا : صراعا ثقافيا ، وهو أشد أشكال الصراع الإجتماعي تعقيداً ، ولا ينفصل جوهريا عن كل الأشكال الأخرى من الصراع .

نعم ، إن الصراع « الثقافي » يكتسي مظهرا سحرياً ، ويوهم صاحبه منهزما أو منتصراً بالسمو والتفوق حتى وإن كان بعيداً عن كل مقاييس الهزيمة والإنتصار . لكن المعنويات عندما تتشخص في رموز تمنح للمنتصر والمنهزم تعويضا ، خاصة إذا كانا معاً قد ضلا طريقهما إلى مجال الكسب المادي والعملي ، لذا فالمعنويات دائما « لا تقدر بثمن ! » ..

بالطبع ، إن حدود الصراع في مجال الثقافة غير واضحة ، وألوانه متبدلة .. كما أن عالم الرموز طيّع وخادع ، وسلاح ذو حدين ، وكل طرف يحركه كما يشاء ويرى فيه الحجم الذي يناسبه ؛ إذ الرموز من صنع الإنسان ، وقوتها من قوته ، ولا معنى لها غير المعنى الذي يبدعه الإنسان ، ليظل قوياً وطامحا إلى القوة والهيمنة .

إن الصراع الثقافي إذن ، صراع الرموز وصراع الإنسان نفسه ، والإنسان دائما في حالة حرب مع نفسه ومع أقرانه ثم مع « الآخر » الذي يخترعه حسب الحاجة والمناسبة ..

وباعتبار ذلك ، أضحت الثقافة أكثر قدرة على تمثيل الإنسان في حالة صراع ، وخاصة عندما تتقمص الرموز أصحابها ، فتحتويهم أفرادا وفئات .

الصراع الثقافي أمر قائم دائما ولا مفر منه . والذين يشنعون على الصراع بين المثقفين إنما يخوضون صراعا آخر مضادا لصالح أنفسهم ووجهات نظرهم ..

ولعل أوضح أنواع الصراع الثقافي .. الرمزي ، هي تلك الأشكال التي تعبر عنها :

- مهاترات ومنازعات مقرونة بأفراد ، وهي مهاترات لا تكثر إلا عند إنعدام البدائل .

- تصفيات تعتمد أسلوب النفي والتجاهل والإلغاء والتشويه ، وهي لا تظهر إلا عندما تصبح البدائل الثقافية (الرمزية) عاجزة عن الإقناع .

- صراع بدائل ، وهو أهم أنواع الصراع وأجدى لما يفرزه من عطاء ، فعندما يصدر كتاب (دون رغبة واضحة في الجدل) ، فهو بالضرورة يقف مع أو ضد كتاب سابق .

وعندما تصدر رواية ، فهي طبعا ترسخ رواية أخرى أو تنفيها ، وعندما نصنع مؤسسة ثقافية (جريدة / مجلة ...) نكون قد وضعنا قدما راسخة في أرض متنازع حولها دائما .

إن الصراع الثقافي ، لا يعرف قاعدة واحدة ، ومن يريد إرساء قاعدة أو قواعد محددة فهو يحلم . ومن يدعو إلى قيام صراع ثقافي ذي أخلاق فهو يحلم أيضا . فليس هناك ضوابط تحمي « أخلاقية » الصراع وتجعله « نظيفا » حتى وإن كنا جميعا نريده كذلك ، ومن يدعي أنه لا يمارس الحوار الثقافي والنقاش النظيفين !

الصراع الثقافي النظيف شعار يحمله بعض « الكبار » الذين ثبتت أقدامهم وصارت لهم قدم راسخة ، أو يحمله الصغار الذين انغلقت الأبواب في وجوههم .. وهو شعار سرعان ما يتبخر ؛ إذ لا يتردد أحد في تنويع أسلحته بما في ذلك أسلحته السلوكية ، فيخوض أشد المعارك فتكا ، باردة وساخنة .

ودون شك ، فالمبررات كثيرة ما دامت الثقافة هي ما نعيشه ونصنعه ، وهي التعبير الحامل لنمط حياتنا ، فكيف يتم الصراع إذا لم يكن منتهيا إلا ما تحيل عليه الثقافة وما ترتبط به من مصالح ومطامح ذاتية وسياسية ؟ وكيف يبيح المرء لنفسه الإنخراط في المؤسسات المدنية والسياسية ، ويتفنن في توظيفها وتظل في الآن نفسه « ثقافته » بمعزل عنه ؟

ليس علينا أن نخشى الصراع ، أو نستهين به ، وأن نغلفه بثوب أخلاقي . بل علينا دائما أن نعيه وأن نواجهه ، وأن نفطن إلى الأساليب الماكرة حتى يظل صراعا إيجابيا . ●

« أليس التـواطؤ على ممارسة الـتزييف الثـقافي ، والحـرص على خلط الأوراق دليلا على الفوضى ؟!.. »

الثقافة والفوضى

من سمات الثقافة أن تكون ذات حدود مائعة . وأن يكون نشاطها غير « نقي » كل النقاء ؛ فمن طبيعتها أن تحتوي تجارب مختلفة ، متفاوتة في المستوى والنوعية إلى درجة قد يحسب بعض المثقفين أن الثقافة ليست سوى واقع « فوضى » .

حقا ، إن تلازم النشاط الثقافي مع ما يمكن أن يوصف « بالفوضى » ، جزء لا يتجزأ من ديناميتها ، ومظهر من مظاهر إختلافها ، وتعارض مجمل « القيم »

و « المعايير » التي تستجيب لحاجيات الأفراد والجماعات والتنظيمات الإجتماعية .

« فالفوضى » ليست إذن سوى وجهة نظر عن الثقافة من داخل الثقافة نفسها ، وليست حكما عاما وقاطعا ورأيا حاسماً ؛ وإنما هي رأي يجد مبرراته داخل الثقافة باعتبارها غير ملزمة بالوقوف عند حدود ، بل هي متداخلة متشابكة بكل أنشطة الإنسان السياسية والعملية والنفسية .. وقادرة أن تمثل أشكال الصراع الإجتماعي بترجمته إلى صراع ذهني ورمزي وإنفعالي ..

هكذا، فالثقافة هي أساساً صراع ، تتشربه وتتمثله بكيفية قد ينقلها من « النقاء » إلى « اللانقاء » ومن النظام إلى حالة الفوضى ..

ومع ذلك ، فهي تبقى « ثقافة » ولنا أن نقبل أو نرفض . وهي لا تبالي ما دامت حاجاتنا ومواقفنا وأفعالنا لا تمنع غيرها .

وفي مجتمعنا حاليا ، قد يكون مفهوم « الفوضى » وارداً لوصف جملة من الأنشطة وتعبيراً عن نوع من الصراع الإجتماعي داخل الثقافة ؛ وخاصة عندما نريد تسمية مظاهر من السلوك والتعبير القائمة على أساس إستهلاك

وترويج « مخدرات » ثقافية قديمة وجديدة ، مما يعتبر « قيما » زائفة في الثقافة العربية والمغربية ..

بالطبع ، إن القيم الزائفة ، في نظر مروجيها ومستعمليها ، قيم إيجابية (!) تعطيهم الحضور وتشبع رغباتهم ، وتعوضهم بصورة أو بأخرى ، وتحقق لهم إنتصارات ثقافية بحرا وجوا وداخل مؤسسات وجمعيات ومنابر . وهم بكل تأكيد ، يرون المسألة كلها مسألة جدل وصراع ، ولِمَ لا ؟!

هكذا تأتي الثقافة فتحا وغزواً وإختراقاً !

- وإذن ، من يمنع ناقداً كسولا لا يقرأ أن يروج لكاتب لا يتقن لغة الكتابة ؟ لكي .. ؟! . أو أن يؤرخ للأدب والفكر طولا وعرضاً ! حتى ؟؟ ..

- ومن ذا الذي يملك حقا في سد فم مثقف حريص على أن ينشر الأخبار المغلوطة والمغرضة للنيل من الآخرين ؟ رغبة في .. !!

- ومن ذا الذي يمنع كاتباً يحتقر غيره من أجل أن يصطاد كاتباً صغيراً أو كاتبة ناشئة ، لا مواهب لها ، بالدعاية و « التقريض » والإحتواء ! حبّاً في ... !

- من ذا يحق له أن يقطع لسان مثقف يروج لكاتب

مزيف أو يطلق أحكاما هي أقرب إلى أحكام السفه ! بقصد ولأجل .. !! ..

ويحدث ذلك في مجالات ثقافية أخرى ؛ كالغناء والمسرح والتشكيل .. إلخ ...

عندما تكثر في الثقافة جمل مغرضة وغريضة مثل « رغبة في .. » و « لأجل ... » و « حتى ... » و « حبّاً في ... » و « بقصد ... » ، فإن الثقافة تصبح ثقافة فوضى حقاً وثقافة أعراض غير ثقافية .

أليس إذن ، من حق من لا تتحكم في سلوكه وأفعاله تلك الجمل أن ينعت واقع الثقافة بواقع الفوضى ؟ .

أليس التواطؤ على ممارسة التزييف الثقافي ، والحرص على خلط الأوراق دليلا على الفوضى ؟! ●

« أزمة الثقافة العربية ماهي إلا أزمة فئة من المثقفين العرب .. »

أزمة المثقفين !

يتصف كل خطاب إيديولوجي بجملة خاصيات تحدد موضوعه ومنطقه وتبرر نتيجته .

وهذه الخاصيات ، كخاصية التعميم والإسقاط والتكرار والإختزال ، تضع الخطاب بالضرورة على هامش العلم بكل تأكيد .

ومن بين أشكال الخطاب الإيديولوجي ، خطاب الفئة المثقفة عن الثقافة ؛ هذا الخطاب الذي يسلم منذ البدء بوجود أزمة تشمل الثقافة العربية خاصة ، والمجتمع والواقع

عامة ، ولم يبق لديه سوى البرهنة على وجودها دون الإلتزام بضوابط البحث السوسيولوجي ، ولا احترام حدود البحث الأنتروبولوجي نفسه .

وخطاب « أزمة الثقافة » خطاب مازال مستمراً ، ويتكرر بعد كل نكسة عربية أو وطنية ، ويكيل للثقافة التهم ، وتحميلها كل أسباب الهزيمة والتخلف ، ويجد في مصطلح " الأزمة " أداة سحرية ، تصف كل شيء ولا تصف شيئا ، وأحيانا يتشبث بمصطلحات دالة على نفس المفهوم .

ومعنى ذلك ، أن مفهوم الأزمة غامض في ذهن هذه الفئة التي تنتج « خطاب الأزمة » . وغموضه دال على وجود خلل في « الفهم » وحرج في « الموقع » ، يحاصران الفئة المثقفة (النخبة) أو شريحة هامة منها ، فتعمد إلى تقديم تصور إنتقادي (رافض) من أجل احتلال موقع ثقافي أولا ، وموقع إجتماعي وسياسي تبعاً . بينما هي عاجزة عن إنتاج الثقافة فعلاً ، وسلوكها السياسي متخاذل وهامشي دائما .

بالطبع ، ينم خطابها عن توقها إلى الإنتاج الثقافي والتغيير والتصحيح ... فهي دائما تجود بخطوط

(عريضة) ومقترحات (عملية) لحل الأزمة ؛ إلا أنها (أي الأزمة) أزمتها هي ؛ فهي ترى صورة لها معكوسة على المرآة ، ولا تحدق في أصل الصورة ، ولا حتى في الإطار الذي يعكس الصورة ويحجب الأصل .

إنها إذن تخفي أزمتها هي ، وتجد في خاصية « التعميم » ما يسعفها لجعل الثقافة مفارقة للإنسان وملتبسة ، بينما الثقافة تراكم أشكال وتجارب تختلف مظهراً ووظيفة ، وتتفاوت درجة ونوعية ، وتتراوح بين الصفة العلمية المقننة ، والصفة الوجدانية العفوية بين التحقق اللغوي ، والتحقق الصوري والرمزي ، وبين الحضور المادي العملي والحضور التخيلي ، وبين المنفعة والمتعة ، والأخلاقي والديني ، والشعبي والعصري إلخ ...

بمعنى أن الأزمة إن وجدت ، لا يمكن أن تكون أزمة كل الثقافة وكل الفئات التي تنتجها وتستهلكها ، بل ، ضمن تصور مشروط ومحدد ، قد تكون معبرة عن صراع ما تمثله ممارسة ثقافية في حالة تصادم مع ممارسة ثقافية أخرى داخل المجتمع . فهي إذن ، فئة في مواجهة فئة أو فئات إجتماعية أخرى .

وهكذا ، فإن مفهوم الثقافة ينبغي تحديده بالقدر الذي

تتحدد به الأزمة نفسها . لكن الخطاب الإيديولوجي غير حريص على الدقة مادام أصحابه ، عبر خاصية التعميم ، يلبون حاجة ملحة لديهم ، وهي أن يكونوا معنيين بكل شيء دون الإلتزام بشيء محدد ، حيث يسهل عليهم التعلق بمنابر سياسية وصحفية ، والتعاطف مع إختيارات متباعدة لممارسة النقد والإختلاف ، وتغيير المواقف والمواقع عند الحاجة .

كما أن خاصية التعميم تمد لهم جسراً إلى الثقافة الأخرى ، وعبر الإلتباس الذي يحمله كل تعميم ، بقدر ما يكون المحتوى السياسي مائعاً ، يكون أيضا فهم ثقافة الآخر أكثر ميوعة ، خاصة عندما يدخل عنصر الإسقاط ، ويصبح مقايسة لثقافة بثقافة أخرى ؛ إذ أن القول بوجود أزمة شاملة في ثقافة ما لابد أن يتصور وجود ثقافة أخرى غير مأزومة . هي إذن ، ثقافة نموذجية ...

وهذا ما ينساق إليه « خطاب الأزمة » ، حين يصير مبشراً وداعياً إلى ثقافة إشتراكية، ديمقراطية ، حداثية ، عقلانية ، علمانية .. إلخ ، وهو يقصد الثقافة الأوربية ، الغربية عامة ، ويخشى أن يسمّيها أحيانا كثيرة .

إن المقايسة (الإسقاط) التي تحكم خطاب الأزمة ، مغالطة إيديولوجية ، لا يقبلها العلم ، مادام لا وجود لمجتمع

أكثر تقدما من ثقافته ، ولا وجود لثقافة أكثر تطورا من مجتمعها . بحيث تصبح كل مقايسة تستهدف الوصول إلى حكم قيمة ، أو إلى المقارنة الموصلة إلى حكم من قبيل الأزمة والتخلف غير ذات جدوى .

حقا إن فعل المثاقفة له تأثير ، ويمكنه أن يساهم في خلق ظواهر ثقافية ، ويمكنه أن يطرح بدائل تصويرية في الثقافة، غير أنه فعل مشروط دائما ، ويعجز ، أن يلغي أو يغير كل شيء .. إذ ليس فيها دائما ما يمنع أشكالا ثقافية من الإستمرار والإتصال . وحتى في حالات التبعية المطلقة تستطيع الثقافة ، من خلال تعددها ، أن تظل محافظة على إستقلالها ، وخاصة في مجتمع كالمجتمع العربي (مجتمعات) حيث تسود لغات وذهنيات وإختيارات وتراكمات ثقافية شديدة التنوع ، وتزداد قابلية للإغتناء والإتساع .

إن أزمة الثقافة العربية ماهي إلا أزمة فئة من المثقفين العرب الذين آثروا أن ينتجوا خطابا على هامش العلم ، وعلى هامش المجتمع ، ومن موقع إنتاج الخطاب لا غير . ●

« عتبة الوهم لا تفضي إلى حقيقة سوى ما كان متناقضا معها ! .. »

الثقافة إلى أين ؟

يفترض في كل « ثقافة » تتسم بالحيوية والتنوع ، أن تطرح بين الحين والآخر ، عددا من الأسئلة التي يمكن أن تلتقي تحت سؤال عام ، صيغته : « الثقافة إلى أين ؟ » .

وكل سؤال ثقافي ، لا يكتسي معناه إلا من جملة الشروط المصاحبة له ، والتي لم ترسم حدود الجواب المطلوب ، بمراعاة « الحاجات » المستجدة والعوامل الفاعلة في المجتمع .

وسؤال مثل « الثقافة إلى أين ؟ » ، لا يمكن أن يكون بسيطا ، أو سؤالا ثقافيا مجردا ، فهو نظرا لعموميته ، يتضمن بالضرورة أسئلة أخرى أو يحيل عليها ، وفي الآن نفسه يتحدد إجتماعيا كسؤال : « المجتمع إلى أين ؟ » .

وهذا يعني ، من حيث التفسير ، أن السؤال يتضمن إعترافا بوجود حيوية ثقافية - إجتماعية ، كما يقر بوجود حالة من حالات الإختلال أو « الأزمة » ؛ وتبعا ، فإن « الثقافة » لا تتوافق والمتطلبات الجديدة ؛ إذ تحول دون تحققها عوائق يجب أن تعرف وتزاح .

هكذا يكون السؤال « إلى أين ؟ » سؤالا نقديا ، يلتمس البديل ويقترحه ، وإذا لم يتضمن هذا البعد النقدي أصبح سؤالا عبثيا ، فلا ديناميكية في المجتمعات إلا بوجود « النقد » ، ومن ثم كانت الشعوب الموسومة بالتخلف أو البدائية تحرم النقد ، ومن ثم اتصفت بأنها مجتمعات جامدة ثقافيا وإجتماعيا ، أو بالأصح ، مجتمعات منغلقة ومنعزلة ، حولت الثقافة إلى طقوس محرمات .. و« قوانين » غير قابلة أن تكون موضع سؤال .

وإذن ، فلا ثقافة خارج المجتمع ولا مجتمع بدون ثقافة ، وما يقال عن إستقلال الثقافة وخصوصيتها ، لا يعني سوى

أن الخصوصية هي خصوصية « أبنية » ، وأن الإستقلال إستقلال رموز ، فمهما تجاوزت « الثقافة » الواقع ، فهي تبقى فيه وتشتغل به وعليه . وأثرها وفعاليتها بالضرورة حاصلان من حضورها الإجتماعي .

ويبقى القول ، بعد هذا ، أن طرح سؤال مثل : « الثقافة إلى أين ؟ » بعموميته وشموليته ، لا معنى له إلا بالنسبة للمجتمعات التي تعيش حالة « إنفصام » أو إختلال ، وتقف على عتبة التغيير ، خصوصا المجتمعات التي تجد نفسها مشدودة إلى عجلات مجتمعات أخرى وتحاول السير معها . فلا هي تستطيع الإندماج فيها ، ولا هي قادرة أن تستقل بذاتها عنها ، إنها مجتمعات تابعة فقط .

وأما المجتمعات الحيوية ، فهي حين تطرح السؤال « إلى أين ؟ » لا تطرحه بعموميته ، ولكنها تخصصه وترهنه بممارسة ثقافية محددة ، وبشكل من الأشكال الثقافية ، نظرا لجدلية العلاقات التي تمنح كل شكل وتيرة خاصة ، ووظيفية متميزة وحضورا نوعيا ، بحيث يكون زمن التساؤل عن مصيره أو واقعه ليس (هو) زمن غيره لزوما !

فأي سؤال نطرحه نحن الآن ؟ ، هل سؤالنا سؤال الإنفصام والتبعية ؟ ، هل هو سؤال المواجهة والدفاع ؟ ، أم هو سؤال

التبرير والإستسلام ؟ ، أم هو سؤال خاص ؟ ..

ما أن نتأمل واقعنا الثقافي الذي ننغمر فيه ، ونترك مسافة بيننا وبينه ، حتى يتبادر إلى ذهننا أن السؤال ، الذي يفرض نفسه ، لن يكون بسيطا وذا معنى واحد ، ويستهدف غاية واحدة . وهو لذلك قد يغري السائل بالقول : إن واقعنا الثقافي واقع إغتناء يحقق الإشباع ، ويستجيب لرغباتنا المختلفة . ومن ثم ، فإن السؤال لابد أن يتحدد ليكون متعلقا بحالة معينة مطروحة على أساس كيفي ! وقد يقع السائل في وهم آخر ، فيعتقد بأن المجتمع يعيش في رحاب ترف ثقافي . وإذن ، لا جدوى من السؤال إلا إذا كان أيضا محدوداً ، وخاصا جداً وبعيداً عن كل تعميم أو إشكال !

وإن المتوهم كثيرا ما يرى الأشياء التي يريد أن يراها فقط . وعتبة الوهم لا تفضي إلى حقيقة سوى ما كان متناقضا معها ! حيث من عادة الوهم ـ الواهم ـ أن يعكس الواقع ويعيد بناءه بطريقة ممسوخة ومشوهة ، ولو بمخالفة كل أشكال المنطق المعقول ؛ كأن يتجاهل طبيعة الثقافة وكونها لا تعرف حالة الإشباع ، ـ وإن أرادت ذلك ـ ولا تتوخى أن تكون ترفاً ، وإن حققت شيئا من ذلك ، فهي أبداً

تريد أن تكون ضرورة وأفقاً غير مُنْتَهٍ ، متغيرة ، باحثة ومتجددة ومتسائلة أبداً .

وبالنسبة لنا ـ ولمجتمعنا ـ لن يكون إدعاء حالتي الإشباع والترف سوى كذبة بلقاء أو خدعة مقصودة ، تريد جعل الواقع مرضياً مكتفياً بالظواهر البراقة وجاعلة منها دليل إغتناء ، بينما ماناراه من إختلاف وتنوع إن هو إلا علامة إختلال وإنفصام تستوجب التساؤل والتأمل .

فما نراه من تنوع وإختلاف ليسا راجعين إلى إختلاف المنطلقات وتنوع المفاهيم ، وليسا دليلين على نشاط المجتمع نفسه . ولكنهما نابعان من مصدر آخر . أو بالأحرى صادران عن حالة تصادم بين نوعين كبيرين من المؤسسات التي تنتج الثقافة .

وهذا النوع وذاك ، بينهما تعارض حاد ، إذ أنهما لا يلتقيان في المكان الواحد سوى إلتقاء أثر ، ولا يرتبطان بهذا المكان (المجتمع) إرتباطاً واحداً . بل وأحدهما يقصد بطريقة أو بأخرى إلى إلغاء الآخر ، عبر ممارسة الهيمنة وإمتلاك الوسائل والأدوات ؛ بحيث يمكنه أن يمارس فعله بالثقافة وضدها ، بسبب خلفيات مصلحية غير ثقافية تحركه وتوجهه .

وإذا سمينا كل نوع من هذين المؤسستين قلنا أن الصراع قائم فعلا بين مؤسسة (مؤسسات) وطنية وأخرى غير وطنية : الأولى تجد نفسها في حالة دفاع ومواجهة ، والثانية تتسلل إلى المجتمع بقوة وذكاء ، وتستقطب طموحات (فئة) من ذوي المصالح وذوي النزوعات النخبوية ، والذين لا يهمهم إنتاج الثقافة ، ولا يتساءلون سوى سؤال الإشباع والترف . وبذلك يستجيبون لمنطق المؤسسات غير الوطنية ، التي هدفها أن تجعل المجتمع مستهلكا فقط لثقافة مجتمع آخر ، والحرص على قتل كل القدرات الإبداعية للمجتمع بدءاً من تمييع الأسئلة وتجميد الإمكانات وتشجيع التبعية وخلق « طوابير » من المثقفين وتمكينهم من التسلل إلى المؤسسات الوطنية أو من إصطناع مؤسسات تتماهى مع المؤسسات الرسمية أحيانا أو تلتصق بها إلتصاقاً أكثر الأحيان ، لخلق أسباب التبعية وترسيخ الإستهلاك ، سواء على صعيد التعليم ، أو النشر أو الإعلام ؛ الأمر الذي يفرز « ثقافة » مثل : ثقافة البارابول والدوزيم مثلا ، أي ثقافة الإختلال والإنفصام ...

ومن ثم يبقى السؤال معلقاً .. ماهو السؤال الذي ينبغي أن نطرحه ؟

وبما أننا مجتمع حيوي نام ، ويمتلك تاريخا مؤثرا وممتدا ، ويسعى لأن يجد مكانة في العالم ، لائقة بتاريخه ذلك ، فمن الضروري أن يتحصن السعي بوعي نقدي ، حاصله علاقة متوترة وديناميية بين الموروث التاريخي والموقع المستقبلي المأمول . وحاصل أيضا عن علاقة متوترة بين ما يعتمل داخل المجتمع ثقافيا ، ولو في صورة وعي بوجود إختلال ما ، ومثل هذا الوعي المتوتر إيجابي بكل تأكيد ؛ لأنه على الأقل شرط الحركة ، وكل حركة ممكنة لا يقتلها سوى الكسل والخمول والتسليم . ومثل هذا الوعي يتضمن بالضرورة إدراكا لما نسميه « الثقافة الوطنية » .

وعندما نتساءل : الثقافة إلى أين ؟ فلا غاية من السؤال ، إلا البحث عن تحريك الفعالية /الفعاليات الثقافية لتجاوز الإختلال والإستجابة لرغبات وحاجات المجتمع . ولا فائدة ، إذن ، ترجى من السؤال إذا لم تكن هناك قدرات ذاتية لدى المجتمع ولو في حالة كمون .

وإذا كنا نعترف بوجود إختلاف وتنوع . فنحن أيضا نقر بوجود عوائق ، وحواجز ومثبطات تركب الإختلاف والتنوع وتحرفهما ليكون الإختلال واقعا لهما .. بمعنى ، لكي يصبحا معا عنصرين خالقين - مع غيرهما - لحالة الإختلال ؛

فالإختلال « نشاط » غير منتج ، إنه إضطراب يعيش على أعراض مرضية تؤشر على وجود أجسام أجنبية أو غريبة .. ومن ثم ، فإن الإختلال غير معبر - بالنسبة للمجتمع - عن إختيارات مقبولة أو مطلوبة ، عكس الإختلاف الذي لا يقوم إلا كاختيارات نابعة من تلون النشاط الإجتماعي وطموحات الفئات الإجتماعية الباحثة عن تعبيرها الخاص ؛ والذين يصنعون الإختلال ويدعون ما يدعون من مزاعم الإختلاف والتحديث ، ليس لهم أي وعي بالثقافة الوطنية ، ولا يهمهم غير السقوط في مدارات التبعية والإستهلاك مواكبة لعمليات أخرى في مجال الإقتصاد والسياسة . وغني عن القول ، أن حالة الإختلال لا تحدث صدفة ، وإنما هي نتيجة تظافر عوامل شتى . وما نراه من أعراض ثقافية تشير إليها بوضوح ، سواء كانت عوامل ذاتية أو عوامل خارجية .

وهي عوامل لا ترجع إلى أفراد ، فنشاط الفرد يبقى دائما محكوما بسيرورة الجماعات ، ولا يكتسي وظيفته وأثره إلا إذا كان معبرا أو مؤثرا في فئة أو مؤسسة .. ولذا ، فإن عوامل الإختلال آتية من وجود فئات إجتماعية مصلحية وإنتفاعية ، تمكنت من الهيمنة على مؤسسات أو صنعت مؤسسات إصطناعا ، لكي تنزع أغراسا إن هي إلا

حبال لجر الأقدام وربط الأعناق ، مع التفنن في عرقلة حيوية المجتمع ، بدءاً من التشكيك في قدراته وتطلعاته الوطنية ، على صعيد التعليم والإعلام وأجهزة الثقافة ، والتعاون الثقافي .. إلخ . فالظاهرة الفرانكفونية - مثلا - تتقوى بطرق ظاهرة وخفية ، وستتقوى مادامت هناك فئات مدعمة ذات مصلحة ومنفعة ؛ ومقاومة الفرانكفونية أو سواها لن يكون إلا مقاومة للفئات الإنتفاعية نفسها ، وأيضا بالتصدي لكل مظاهر التمييع التي تقوم بها مؤسسات « وطنية » عن وعي أو بغير وعي . وللأسف ، فإن « الدولة » تعطي الدليل بعد الآخر على أنها غير معنية بالثقافة ؛ وتجد راحتها في تسيير ماهر قائم ، علما أنها بقدر ما تبيح لنفسها الرقابة ، وتصرف العملة الصعبة من أجل إستقدام « ثقافات » أجنبية (فرق ، نشرات .. إلخ) ، فهي تبخل ، كل البخل وتفرط في خلق البناء المادي للثقافة ، في تهميش الإنتاج الوطني ، لتكون سياسة الوعود كفيلة بحل المشاكل قانونيا وأخلاقيا وعمليا ، وليصبح المواطن فقط رأس « بارابول » يفرح بما يأتيه من فوق ومن بعيد . وليكون المثقفون - فنانين وأدباء وباحثين - (مجرد) مسامير وأسلاك تنقل الإشارات ، وتعيد إنتاجها كما هي . فالعصر

عصر ليبرالية وخوصصة حقا . هكذا يصبح السؤال الآن سؤال إختلال ، يلتمس القيام بمقاومة واقع الإختلال نفسه . وليس من جواب عنه سوى أن يعرف الجميع بأن المجتمع المغربي حاليا بحاجة إلى حركة وطنية جديدة ، حركة ثقافية تعطي للثقافة الوطنية دورها في بناء الذات حتى لا يصبح المجتمع مجرد متفرج على الآخرين .

حين نريد اللعب بالألفاظ يصبح سهلا علينا خلط المفاهيم ، وإستخلاص نتائج غير منطقية ، والوصول إلى أحكام من قبيل : « ليس سهلا تعريف الثقافة الوطنية » ، أو « إن الثقافة الوطنية مفهوم ميتافيزيقي » ، وأخبث أشكال التفكير (الميتافيزيقي) هي التي تريد تجريد كل شيء بالتعالي عليه وإدخاله في عالم التصورات الإطلاقية والمطلقة ، بينما نحن نعيش في مجتمعنا دائما بمنظور ثقافي ، هو شرط تواصلنا وتفاهمنا . منظور يحدد بدوره حدود العلم من اللاعلم ، والمعقول من اللامعقول ، والمقبول من اللامقبول ، وإستنادا إلى ذلك لن يكون صعبا أن نتفق على مبادئ تمنعنا من أن نشكك في كل شيء ..

فالثقافة « الوطنية » ـ كنشاط ومؤسسات ـ تعني لدينا

حصيلة من إنتاج وتنظيمات مرتبطة بالمكان والزمان الذي نحيا فيه ، هذه الحصيلة ، التي أنتجناها من قبل أو ننتجها الآن ، لها تاريخ هو تاريخنا نحن ، ولها قدرة أن تترجم وجودنا نحن ، وهي تنشأ من خلالنا أيضا ، هي ما نجده تراثا ، وهي ما نصنعه في حاضرنا . لذا ، فصفة الوطنية ترفض أن تحتوي ما ينتجه آخرون في مكان وزمان آخرين ، ولا تقبل أن تعيد إنتاج ثقافة أخرى ، وحتى حين تواجه - مثلا - أسئلة الحداثة والعالمية ، فهي تواجه نفسها ولا تستعير من غيرها ؛ فالحداثة هي حداثة من ينتج لا من يستهلك ، وهي عالمية من يملك تاريخا وتراثا لا من يرمي نفسه لقيطا في طريق الآخرين .

فالحداثة والعالمية وما شابههما من إشكالات نقدية ، هي دائما - لكي يكون لها معنى - مرتبطة بصفة الوطنية عندنا أو عند غيرنا .

الثقافة الوطنية باختصار ، هي الثقافة التي توجد بنا ولنا دون أن يكون وسيط بيننا وبينها . ونجد فيها وجودنا كما نريده ونصنعه .

لقد طرح مفهوم الثقافة الوطنية في فترة التحرر ، وأعيد طرحه في بداية الإستقلال - عندنا - وأسال مدادا كثيرا في

فترة الستينيات ، وتحكم في صياغة أسئلته في سياق التحرر السياسي والديمقراطي الذي ركز على وظيفة الثقافة كأداة تغيير داخلي لمواكبة حركة العصر . وقد يبدو السؤال عن الثقافة الوطنية الآن ، مجرد ثرثرة تستهلك موضوعا متجاوزا ، غير أن السياق الذي يحكم صوغ السؤال الآن ، سياق آخر ، لم يعد يبحث في وظيفية الثقافة وكيفية إحداثها للتغيير، بل أصبح لا يستوجب الوعي بالثقافة كواقع وغايات وعلاقات فقط ، ولكن يضع الثقافة نفسها داخل المجتمع موضع السؤال كهوية ، بمعنى أين حدود الثقافة الوطنية فيما ننتجه ونستهلكه ؟

وتبعا ، تتولد أسئلة فرعية مثل : ماهي العوائق التي تحول دون سيطرتنا على التغيير المرغوب فيه ؟ وماهي العوامل التي تحاصرنا بواقع الإختلال وحالات الإحباط والتشكيك فيما ننتجه ، وتغرينا بالجري في مجرى حداثة مفتعلة لا نجد فيها وجودنا كمجتمع ؟ وماهي العوامل التي تكبل المثقف ، أو تجعله متخليا عن صخرته بعيدا وحاملا لصخرة الآخرين وفي حالة تدرحرج إلى الأسفل ؟ . ●

« محمـد الدغمومي يعـيش بعمق قلق الوطن ، والعصر . ويعـانقه بشغف ، ووعي . »

الدغمومي من هذا الجيل

بقلم : سعيد يقطين *

انخرط محمد الدغمومي بهمٍّ مترسخ ، وهمة متزايدة ، في الحياة و .. الكتابة .

التقط من خلال القصة القصيرة تفاصيل الحياة اليومية ، ورام تصعيدها وتركيبها ضمن رؤية أعمَّ وأشمل في كتابة الرواية . كما سعى من خلال النقد ، والبحث الأدبي إلى الإنشغال بكبريات

* ـ باحث وناقد .

القضايا والمشاكل التي تهمّ التأمل النظري ، والتطبيق العملي ...

في كل هذه الكتابات تلمس قلقا وجوديا دائما ، مستديما ... وهواجس شتى متعددة المشارب والمسارب . ويبدو لك كل ذلك ، بصورة أبين وأوضح في أعمدته الأسبوعية على صفحات جريدة " العلم " الغراء .

لقد صاغها بـ " ضمير المتكلم " ، لكن المقصود فيها " ضمير الجمع " الذي يتقاطع ، ويلتقي مع الضمير نفسه . فإذا هو ، هو ... بلا تزاويق ، ولا حذلقة ... يقارب ما يزخر به الواقع ، فتتبدّى كلماته عنيفة ، وصادمة . لكن أين منها عنف ما تحتويه الأدراج ، وتتلبّسه الوقائع ؟؟ ... وينسج من تلابيب ما يفرضه اليومي من تعاسات وقسوة ... صوره الدقيقة ، وتعابيره الساخرة ، فيبرز لك ضمير يقظانُ ، وروح وثابة ، ونفس أسيانة ...

تكبر الأشياء ، وتأخذ غير صورها الحقيقية ،

وتسير في مسارات ، واتجاهات أخرى ، ، فماذا يمكن لجيل تربّى على القيم ، وتشبع بالمبادئ أن يفعل ؟ أو يقول ؟؟ ...

محمد الدغمومي من هذا الجيل . يعيش بعمق قلق الوطن ، والعصر . ويعانقه بشغف ، ووعي . وأهم ميزاته أنه يقول كلماته ، ، ، يقولها صادقة ، وواضحة ، ورقيقة ، وطافحة بالسخرية ، ، ،

وهي حين تترك صداها ، فذلك لأنها ساخرة ، ورقيقة ، وواضحة ، وصادقة ، ، ، أي لأنها ضمير المتكلم ، وبتعبير آخر ، ضمير الجماعة . ●

محتويات الكتاب :

● شعارنا الثقافي والإعلامي في محيط العمل والأسرة : «من أجل مجتمع مغربي قارئ».

● الأعداد السابقة من «سلسلة شراع» ، توجد تحت الطلب بوكالة شراع لخدمات الإعلام والإتصال : (137 شارع ولي العهد ـ طنجة) .

● لطبع ونشر الكتب بشكل أنيق وتكلفة أقل ، « وكالة شراع » رهن الإشارة .

● إصدارات «سلسلة شراع» : 10 دراهم

العدد 1 / مارس (1996) :

● المهدي المنجرة ـ « **حوار التواصل** »

العدد 2 / أبريل :

● م.ع . المساري ـ « **المغرب بأصوات متعددة** »

العدد 3 / ماي :

● عبد الجبار السحيمي ـ « **بخط اليد** »

العدد 4 / يونيو :

● مصطفى القرشاوي ـ « **قضايا راهنة** »

العدد 5 / يوليوز :

● نجيب العوفي ـ « **مساءلة الحداثة** »

العدد 6 / غشت :

● وكالة شراع ـ « **باهي .. الصحافي والمناضل** »

العدد 7 / سبتمبر :

● لحسن العسبي ـ « **اللذة والعنف** »

العدد 8 / أكتوبر :

● عبد الله كَنون ـ « **في اللغة والأدب** »

العدد 9 / نوفمبر :

● عبد الغني أبوالعزم ـ « **الثقافة والمجتمع المدني** »

العدد 10 / ديسمبر :

● قاسم الزهيري ـ « **قضايا وشجون** »

العدد 11 / يناير (1997) :

● العياشي أبو الشتاء ـ « **الباحة والسنديان** »

● إصدارات «سلسلة شراع» : 10 دراهم

العدد 12 / فبراير :

● عبد الرفيع جواهري - « **أصحاب السعادة** »

العدد 13 / مارس :

● حسن نجمي - « **الناس والسلطة** »

العدد 14 / أبريل :

● الطيب بوتبقالت - « **عبد الكريم الخطابي** »

العدد 15 / ماي :

● عبدالقادرالعلمي - « **هاجس التغيير الديمقراطي** »

العدد 16 / يونيو :

● المهدي بن عبود - « **عودة حي بن يقظان** »

العدد 17 / يوليوز :

● محمد الدغومي - « **أوهام المثقفين** »

كتاب الشهر القادم من

«سلسلة شراع» :

رائد الواقعية التعبيرية

(أحمد بن يسف)

المفضل الحضري

الطبع : دار النشر المغربية
اديما edima

التوزيع : الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة
سبريس sApress

رقم الإيداع القانوني :
1995 / 1043

SÉRIE "CHIRAA"

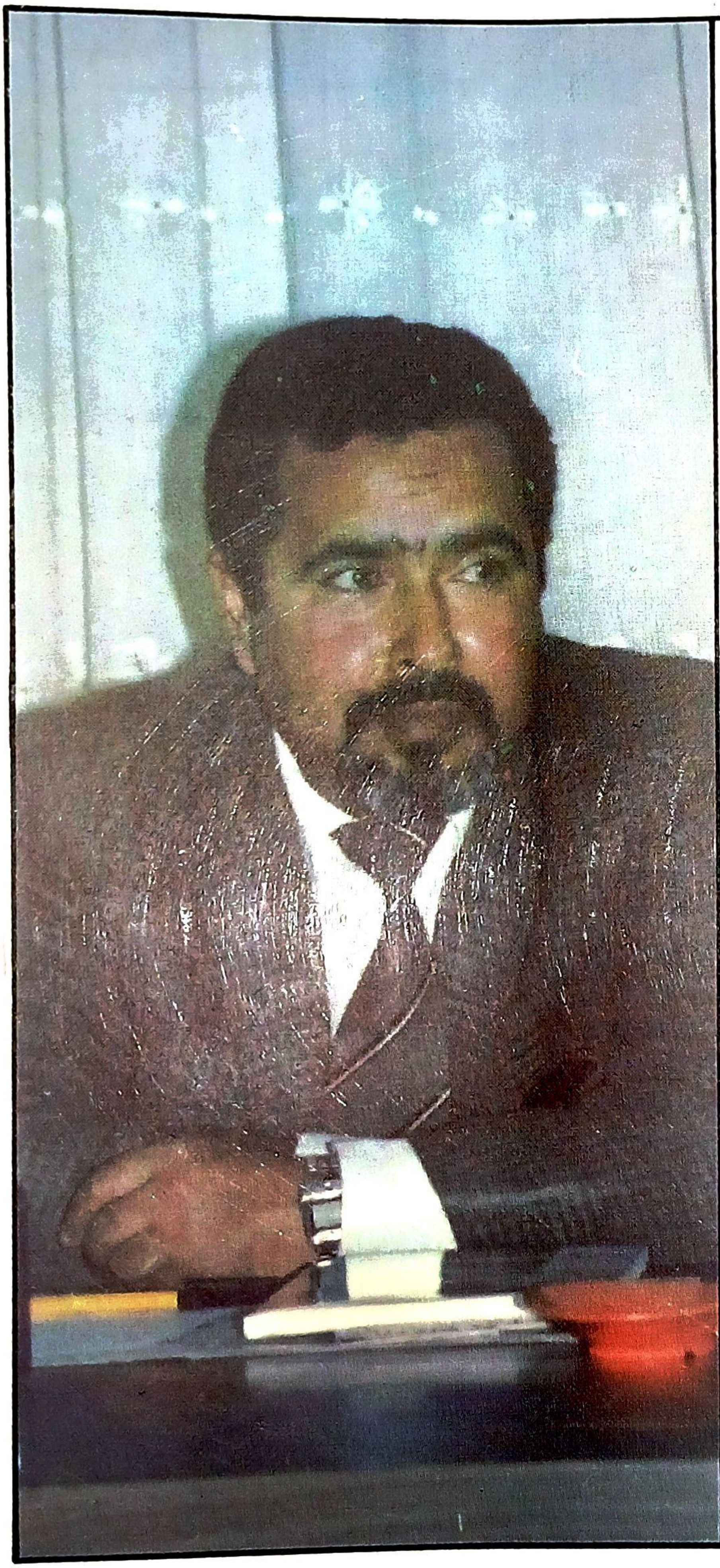
LIVRE MENSUEL PUBLIÉ CHAQUE MOIS
PAR L'AGENCE CHIRAA POUR SERVICES
D'INFORMATION ET COMMUNICATION

DIRECTEUR DE LA REDACTION : KHALID MECHBAL
CONSEILLER ARTISTIQUE : AHMED BEN YESSEF

CENTRE DIRECTION
137. PRINCE HÉRITIER - TANGER
TEL : 94.42.12
[illegible]39.27
FAX [illegible]42.16

DIX SEPTIEME NUMERO : SAFAR 1418 - JUILLET 1997

المؤلف



● الأديب الناقد **محمد الدغمومي** من مواليد طنجة 1947 ، وبها أتمَّ دراسته الإبتدائية والثانوية ، ثم انتقل إلى فاس لمتابعة دراسته الجامعية ، فحصل على إجازة في الأدب العربي 1971 ، وبعد تخرجه عمل أستاذاً جامعياً منذ سنة 1977 ، حيث نال دكتوراة السلك الثالث 1987 ، ودكتوراة الدولة 1996 .

● **محمد الدغمومي** بدأ حياته الأدبية بكتابة الشعر ، ثم كتابة القصة والرواية . سنة 1987 أصدر مجموعته القصصية « الماء المالح » . سنة 1993 أصدر رواية « بحر الظلمات » ، وألف كتاباً نقدياً حول : « الرواية المغربية والتغيير الإجتماعي » ، وله إسهامات ثقافية في الجرائد والمجلات المغربية والعربية . عضو مسؤول في المكتب المركزي لإتحاد كتاب المغرب ، ومناضل بحزب الإتحاد الإشتراكي والنقابة الوطنية للتعليم العالي .

● ذاكرة أديبنا **محمد الدغمومي** مسكونة بطنجة : بحارها ، ضواحيها ، فضاءاتها الشعبية ..

خالد مشبال